أم القرآن

للأستاذ محمود شلبى

عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج - ثلاثا - غير تمام فقيل لأبى هريرة إنا نكون وراء الإمام فقال اقرأ بها فى نفسك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى: حمدنى عبدى وإذا قال الرحمن الرحيم قال الله تعالى أثنى على عبدى وإذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى - وقال مرة فوض إلى عبدى - فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال هو: أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل. (رواه مسلم).

قال العلماء: المراد بالصلاة هنا الفاتحة، سميت بذلك لأنها لا تصح إلا بها، كقوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة.

والمراد قسمتها من جهة المعنى لأن نصفها الأول تحميد لله تعالى وتمجيد وثناء عليه وتفويض اليه، والنصف الثانى سؤال وطلب وتضرع وأفتقار

لأنها سبع آيات بالاجماع، فثلاث فى أولها ثناء أولها الحمد لله، وثلاث دعاء أولها أهدنا الصراط المستقيم، والسابعة متوسطة وهى إياك نعبد وأياك نستعين.

هذا والتحميد هو الثناء بجميل الفعال. والتمجيد هو الثناء بصفات الجلال.

وقوله مالك يوم الدين، معناه أن الله تعالى هو المنفرد بالملك ذلك اليوم، وبجزاء العباد وحسابهم. والدين الحساب، وقيل الجزاء، ولا دعوى لأحد ذلك اليوم ولا مجاز

وأما فى الدنيا فلبعض العباد ملك مجازى ، ويدعى بعضهم دعوى باطلة وهذا كله ينقطع فى ذلك اليوم هذا معناه والا فالله سبحانه وتعالى هو المالك والملك على الحقيقة للدارين وما فيها ومن فيهما وكل من سواه مربوب له عبد مسخر ؛ ثم فى هذا الاعتراف من التعظيم والتمجيد وتفويض الأمر مالا يخفى . انتهى .

* * *

فكرت طويلا فكرا عميقا فى الفاتحة ، وما احتوته من أسرار وأنوار ، فأدركت أنها بحر لا ساحل له ولا قرار .

لماذا كانت هى السبع المثانى ؟ .

لماذا أسماها صلى الله عليه وسلم أم القرآن ؟ .

لماذا أسماها صلى الله عليه وسلم أم الكتاب ؟ .

لماذا أسماها مرة أخرى فاتحة الكتاب ؟ .

لماذا أسماها الله سبحانه وتعالى فى هذا الحديث — الذى بين أيدينا — الصلاة ؟ .

لماذا أطلق عليها كلمة الصلاة ، هل هى الصلاة ، أم أن الصلاة فيها أشباه أخرى غيرها ، ولكن لماذا أختارها لتكون هى الصلاة دون غيرها ؟ .

وفككت القيود والسدود عن عقلى ، وأطلقته يفكر ويتدبر ويستنبط .

وتذكرت قوله سبحانه « أفلا يتدبرون القرآن ؟؟ » .

« أم على قلوب أقفالها ؟؟ »

فأدركت على الفور أن على قلبى قفلا محكما ، ينبغى أن يحطم وأن يلقى بعيدا .

نعم إننى محجوب ، وعلى قلبى ران ، وعلى روحى غيوم سود .

وناديت من أعماق أعماقى ، أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . ففك القيد ، وحطم القفل ، وتبددت الغيوم ، وتجلت شمس الحقيقة ، وأشرقت الأرض بنور ربها ...

* * *

أما أن الفاتحة أم القرآن ، وأم الكتاب ، فذلك حق وتفصيله أنها الملخص الوافى الكافى للقرآن كله .

فلو جىء بالقرآن وقيل للناس لخصوا لنا هذا الكتاب ، ما استطعنا

أن نجمعه ملخصا فى أقل ولا أدل ولا أشمل ولا أكمل من الفاتحة . .

فهى لذلك تحوى القرآن كله حقا وصدقا وما كان اختيارها فى أوله محض ترتيب ولكنها وضعت كذلك لتكون بمثابة العنوان للكتاب ، أو المقدمة للمؤلف ، أو الفهرس الجامع للسفر الطويل .

ولننظر هل هى كذلك ؟ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية الأولى التى حـوت ما فى الفاتحة كما حوت الفاتحة ما فى القرآن .

فاذا كانت الفاتحة ملخص القرآن فالبسملة ملخص الفاتحة .

وعلى ذلك لم يغال الذين قالوا إن البسملة فيها سر القرآن كله .

بل أعجب من ذلك ... أن الباء التى فى أول البسملة فيها سر البسملة كذلك . فكأن هـذه الباء حوت القرآن كله بالتبعية !! .

هل هذا صحيح ؟

بل هـو الحق الحقيق وإليك التفصيل :

هذه الباء معناها السبب ، والاسم من معناه الإذن ، فباسم الله أى بإسم الله كان كل شىء ويكون ، ولن يكون شىء إلا باسم الله .

فالله هو سبب كل شىء ، موجد كل شىء ، محدث كل شىء ، خالق كل شىء ، وهل التوحيد إلا هذا ؟

وماذا فى التوحيد أعمل من هذا ؟

ولا نريد أن نتعمق « البـاء » أكثر من هذا فالأمر أدق وأرق وأشق لأنه حق .

أما الحمد لله رب العالمين ، فمعناها أن كل شىء يحمد الله لأن الله رب كل شىء ، وأنا أحمدك يارب كل شىء

وأما إياك نعبد وإياك نستعين ، فهى تفويض من العبد لربه ، والله يقول إذا سمعها من العبد « هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل » .

مامعنى قول ذى الجلالة والإكرام فى هذا المقال ؟

معناه أن دعوى العبد أنه يختص الله بالعبادة دون سواه وأنه يختصه بالاستعانة دون خلقه ، أن هذه الدعوى لا يعـلم صدقها من كذبها إلا الله ، لأنه هو الذى يعلم السر وأخفى .

هذا بينى وبين عبدى ؟ .

هذا شيء أنا وحدى أعلمه من عبدى ، ولا أحد غيرى يعلم ذلك منه فهذا شيء بينى وبين عبدى .

ولعبدى ما سأل .

إن كان عبدى صادقا فله ما سأل ، وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ... »

وإن كان كاذبا فى دعواه ، فليس له عندنا شيء ، لأنه لا يعقل مايقول

أرأيت ؟ . عجائب وغرائب فى تلك الفاتحة .

إنها حقا أم القرآن ، لأنها أعلنت التوحيد والتفويض والتمجيد والتحميد لله ، وأعلنت من العبد السؤال والتضرع والافتقار لله .

وإلى أى شيء جاء يدعو القرآن غير تلك المعانى ؟ .

وإنها أم القرآن لأنها تدوى فى الأرض والسماء ، فى الأولى والآخرة أن الملك لله دون سواه .

ما لك يوم الدين ؟؟ .

له وحده ملك يوم القيامة إن كنتم تجهلون أنه الملك لهذه الدنيا لسبب ما أنتم فيه من فتن ملوككم ورؤسائكم .

إن الناس يعيشون فى أوهام ، ويخيلون لأنفسهم أنها حقائق ، بل يرفعونها إلى مقام التأله ، فيعبدونها من دون الله .

نعم ... وهذا هو سر شقائهم .

اتخذوا إلههم هواهم . . وعبدوا أوهامهم وظنونهم وشهواتهم ، أطاعوها فيما أمرت ونهت وأعرضوا عن الله الحقيقى حتى إذا جاءوه وعرضوا عليه يوم الحساب ، ضل عنهم ما كانوا يفترون ، وعلموا أن الملك يومئذ لله

تعلن الفاتحة هذا ... مما لا تسعه هذه الصفحات ، ولا ما هو أوسع من تلك الصفحات .

ذلك أن الله أنزلها ملخصا لكتابه وأنزل البسملة ملخصا للفاتحة ، وأنزل الباء ملخصا للبسملة .

فهل قلنا شيئا فى الفاتحة ؟

والله ما قلنا شيئا ...

محمود شلبى